Al-Dirasat Al-Islamiyyah (Islamabad) 6:1 (1971)

نظرية توينبى فى نشاة الحضارات

للأستاذ ابراهيم شكرالله

ان البيئة وحدها لا تبتدع الحضارات. فثمة شعوب اجتمع لبيئاتها تجانس كامل فى المميزات ، و لكن استجاباتها اختلفت. فتفتح وادى النيل عن حضارة تلقائية باسقة و عجز وادى الاردن و وادى السند و وادى الريوجراندى و الكولورادو — و هى التى تشبه وادى النيل فى جميع ميزاته — عن اخراج ما انبثق عنه من حضارة.

و الاستناد الى النظرية العنصرية ، من ان جنسا واحداً هو الذى طاف الارض ، فاقام حضاراتها المؤزرة جميعا ثم استقر به المطاف فى غربى اوربا حيث حقق اكبر انتصاراته — و هى النظرية المعروفة باسم ''الوحش الاشقر''— هوس عنصرى ، و هذيان تشققت عنه نفوس جدبة اسكرتها القوميات. الجامحة و الرغبة المريضة فى السيطرة والنصر.

فهذا ''الوحش الاشقر'' هذا النوردى الاسطورى لم يساهم الا فى اربع حضارات او خمس على الأكثر هى: الهندية و الهيلينية و الغربية و الروسية الارثوذكسية ، و ربما الحبشية. بينهما ساهم العنصر الالبى فى سبع حضارات على وجه التحقيق. و فى تسع على وجه الترجيح هى: السومرية و الحبشية و الهيلينية و الغربية و كلا من الروسية و المسيحية الشرقية و الايرانية على وجه التحقيق و المصرية و المنوانية ترجيحا.

و ساهم عنصر البحر المتوسط فى عشر حضارات هى: المصرية و السعودية و المنوانية و السومرية و الهيلينية و الغربية و الارثوذكسية المسيحية و الايرانية و العربية و البابلية. و ساهمت العناصر الصفراء

© Dr Muhammad Hamidullah Library, IIU, Islamabad. http://iri.iiu.edu.pk/

و الحمراء و غيرها فى حضارات رائعة امتدت فى ربوع الشرق الاقصى و فى الأميريكيتين و فى غيرها .

فالحضارة العالمية اذن ، ليست وقفا على جنس دون آخر . بل هى بناء وضعت لبناته المتفرقات من شعوب الارض جميعا ، و اجناسها العديدة ، و لا توجد خرافة أشد نزقا و لا اهون شأنا أمام النقد و النظرة الثاقبة من خرافة العنصر المتفوق .

فاذا لم يكن الحافز الايجابى لقيام الحضارات التكوين البيولوجى وحده ، أو البيئة الجغرافية وحدها ، فهو لاشك تفاعل على نحو ما بينهما . و فى الفاظ اخرى يمكن القول ان العامل الايجابى الذى نبحث عنه ليس شيئا مفرداً قائما بذاته بل هو علاقة من نوع ما . و لنا الخيار فى أن نتمثل هذه العلاقة فى صورة تصادم بين شخصيتين فوق مرتبة البشر ، أو تفاعل بين قوتين ماديتين .

فاذا اسلمنا اذهاننا لحظة للتمثل الأول فلعله أن يشرق علينا بانبثاقه وجدانية للحقيقة .

فالوجدان البشرى منذ أول اشراقاته و هو يسعى للافصاح من حقيقة الوجود افصاحا رمزيا مصبوبا فى قوالب ادبية و فنية . و نحن نجد مثل هذا الدأب للتعبير عن المعركة الكونية فى كثير من المسرحيات و القصص الكبرى التى جعلت موضوعها الصراع بين شخصيتين فوق مرتبة البشر : صراع بين يهوه و الحية كما فى قصة سقوط الانسان فى ''سفر التكوين'' أو صراع ثانى بينهما كما فى قصة الخلاص المسطورة فى ''العهد الجديد'' أو التقاء بين الله و الشيطان كما فى ''سفر ايوب'' أو بينه تعالى و بين مفستوفيليس كما فى مسرحية فاوست الجوته ، او صراع بين الآلهة و الا بالسة كما فى الاسطورة الاسكندناوية '' فولوسبا '' او صراع بين ارطاميس و افروديت فى مسرحية

''هيبوليتس'' ليريبديس ، او كما فى عديد غيرها.

كما يظهر هذا الصراع الكونى فى زماننا — مستخفياً — فى آخر ما وصل اليه الفلك فى أصل حركة الكواكب.

فيقول السير جيمس جينز فى كتابه ''الكون المستغلق الاسرار''.

''نؤمن انه منذ بضعة آلاف الملايين من السنين اقترب نجم — كان يتخبط فى غياهب الفضاء — اقترابا وثيقا من الشمس. و كما ترفع الشمس و القمر المد فى الارض ، فان هذا النجم رفع امداداً فى سطح الشمس. و لكنها كانت تختلف اختلافا بينا عن هذه الامداد الضئيلة التى ترفعها مساحة القمر الصغيرة فى محيطاتنا ، كانت موجة مدية هائلة ارتفعت و تحركت فوق سطح الشمس ثم اضحت جبلا ضخما رائعا ، ظل يزداد ضخامة كلما ازداد النجم اقترابا من الشمس . و قبل ان يتوقف عن الاقتراب كان جذبه المدى قد بلغ حدا تفتت معه هذا الجبل و أرسل شظايا تناثرت فى اجواء الفضاء ، كما ترسل الموجات رذاذها على الشاطئ. و قد ظلت هذه الشظايا تدور حول امها الشمس منذ ذلك الحين ، و هى الكواكب صغيرها و كبيرها ، و من بينها ارضنا هذه التى نسعى عليها''

و هكذا ، من فم الفلكى ، و من مستغلقات عملياته الرياضية المعقدة ، نسمع مرة اخرى قصة الصراع بين ربة الشمس و عدوها الذى تسمى فى الاساطير باسماء عديدة.

و هذا الصراع الرمزى نجده فى آخر نظريات علم الحيوان الحديث فى النظرية الدار وينية التى تقوم على تفاعل عاملين ايجابيين هما التطور والانتخاب الطبيعى.

فاذا نحن حاولنا ان نحلل موضوع هذه القصة العالمية ، نجد فيها جميعا ما يوحى بان هذا الالتقاء الفريد كان نذيرا بحادث جلل ارتجت له دعامات الارض ، و تعلق عليه مصير الانسان. ففى سفر ''ايوب''

نعلم ان اليوم الذى جاء فيه ''بنو الله ليمثلوا امام الرب و جاء الشيطان ايضا فى وسطهم'' لم يكن حدثا عاديا ، و مثل هذا ايضا فى التقاء الله بمسفتوفليوس فى افتتاحية فاوست لجيته ''و هى التى تأثر فيها صاحبها لا شك بسفر ايوب'' ففى هاتين القصتين نجد ان المقابلة السماوية بعيدة الأثر ، و ان آلام ايوب و فاوست تمثل فى لغة الوجدان الرمزية آلام البشرية جمعاء. و فى لغة اللاهوتيين المسيحيين نعلم ان سقوط آدم يرمز الى سقطة الانسان و عذاب المسيح يرمز الى خلاصه.

و نحن نشهد فى مطلع هذه القصص جميعا الانسان و هو فى حالة من الاستقرار و الغبطة. ففاوست تحيطه المعرفة الكاملة ، و ايوب الثروة و الصلاح ، و آدم و حواء البراءة و الدعة ، و العذارى جريتشن و داناى و غيرهن فى الطهارة و الجمال . و فى عالم الفلكى نرى الشمس تدور فى جلالها فى الفلك المرسوم لها متماسكة كاملة فريدة فى وجودها المنتظم الرائع .

و احداث التغير فى حالة حققت الكمال لا يمكن بغير حافز او دافع يأتيها من الخارج. فاذا كانت حالة توازن مادى كما فى الشمس السادرة فى فلكها ، وجب ان يظهر نجم آخر . فاذا كانت غبطة روحية او نيرفانا فيجب ان ندفع الى المسرح ممثلا آخر ، ناقدا يثير الشك فى الذهن ، عدوا يبذر التعاسة و الموجدة و الخوف و البغضاء فى القلب. و هذا هو دور الحية فى سفر التكوين ، و الشيطان فى سفر أيوب و مفستوفليس فى مسرحية فاوست.

فاذا تحولنا الى لغة العلم قلنا ان وظيفة العامل المتدخل هو ان يبعث فى هذا الذى دخل عليه حافزا يحرك فيه استجابات ابداعية قوية.

و صورة آدم و حواء فى جنة عدن تشبه فترة الاستقرار و الغبطة التى حققها الانسان البدائى فى المرحلة الاقتصادية الاولى لجمع الطعام ، و ذلك بعد ان استتبت له السيطرة على نباتات الارض و اشجارها.

اما سقوطه استجابة لاغراء الحية على تذوق ثمرة شجرة معرفة الخير و الشر فتمثل استجابة الانسان لحافز دفعه الى هجر هذا الكمال الذى حققه ، و الى المخاطرة بالتماس تغير اقتصادى قد ينتهى او لا ينتهى باكتمال اقتصادى آخر .

ان طرد آدم من الجنة الى عالم تنكر له ، تلد فيه المرأة بالآلام و الاوجاع و يأكل فيه الرجل خبزة بعرق جبينه هو المحنة التى استتبعها الاستجابة لتحدى الحية . و لكن معرفة آدم لحواء معرفة جنسية و هو الذى اعقب السقوط كان خلقا اجتماعيا انتج ثمراته فى قيام ابنين تمثلت فيهما حضارتان ناشئتان : هابيل ، راعى الماشية و قابيل ، فلاح الارض .

و نحن نسمع فى جيلنا هذا نفس القصة من واحد من اكبر اساتذة البيئة و اثرها فى الحياة البشرية هو هيتجنتون الذى جاء فى كتابه ''الحضارة والاجواء'' :

''منذ اجيال عديدة خلت خرج بعض المتوحشين العراة الذين لا بيوت لهم يسكنونها ، ولا نار يعرفون ايقادها من موطنهم الدافئ فى المنطقة الحارة ، و اندفعوا فى إلحاح نحو الشمال . و كان بدء سيرهم فى اول الربيع و منتهاه فى آخر الصيف . و لم يفتقدوا موطنهم الدائم الدفء حتى شهر سبتمبر حين اخذوا يحسون بلذعة البرد فى الليل ، التى أخذت تتفاقم يوما بعد يوم . و لجهلهم بسبب هذا البرد ، اندفعوا هربا منه فى كل اتجاه . فمضى بعضهم جنوباً و لكن الذين استطاع منهم بلوغ موطنهم كان عددا ضئيلا استأنف حياته القديمة و لا يزال نسله من المتوحشين البرابرة حتى اليوم . اما الذين اندفعوا فى الاتجاهات الاخرى فقد فنى اكثرهم و ظلت منهم حفنة صغيرة ما رأت سبيلا للهرب من البرد الا باستخدام مواهب الانسان ، تلك هى القدرة على الابداع و الخلق . فسعى بعضهم للبحث من مأوى بحفر منازل

فى الارض ، و جمع بعضهم الآخر جذوع الاشجار و اغصانها فجعلوا منها بيوتا و أسرة دافئة ، بينها التحف بعضهم بجلود ما اقتنصوه من حيوان و دواب ، و هكذا خطا هؤلاء المتوحشون خطوات واسعة نحو الحضارة فاكتسى منهم العارى و آوى الذى لا سكن له و تعلم الذى كان لا يحسب حساب غده ان يقدد اللحم و يخزنه لفصل الشتاء ، ثم استطاعوا اخيرا ان يشعلوا النار ليبعثوا فى اجسامهم الدفء ، و الحرارة . و هكذا كتبت لهم الحياة حيث ظنوا انه قد قضى عليهم بالموت. و استطاعوا بعملية تكييف انفسهم لبيئة قاسية ان يخطوا قدما نحو الرقى تاركين وراءهم بشرية الخصب و النماء و الدفء الاستوائى فى بدائية مقيمة.

و هذا هو عند توينبى سر الحضارة ، يحيا الانسان فى استقرار ثم يحفزه دافع قوى للسعى نحو مجهول يخشاه فتحيطه المتاعب والآلام ، فاذا انتصر عليها صار رائداً لبقية البشر و تجددت فيه الخليقة جمعاء.